سيبويه

قراءة في التلقي الغربي

د.مؤيد آل صوينت

كلية الآداب الجامعة المستنصرية

الملخص

يندرج هذا البحث ضمن التفوهات النقدية التي دونها اصحابها لتلقي مدونة شيخ النحاة (سيبويه) بالفحص والتحليل. محاولا رصد وتتبع ما قيل من اللسانيين الغربيين لفحص اعطاف الكتاب والوقوف على مكامن الاسرار التي اعطت الكتاب القيمة العلمية المتميزة ،اخذ البحث اكثر من قراءة لاكثر من لساني غربي للوقوف على نقاط الاتفاق ومواطن الاختلاف فيما يخص ما دونوه من افكار وملحوظات سُجلت على طروحات سيبويه.

This research falls within the criticisms, which had recorded by their owners to receive the record of a great grammarian (Sebaweh) by examine and analysis, trying to monitor and keep track of what was said by Western linguists, to examine the book and stand on secrets that gave the book outstanding scientific value. Search took more than read for more than western linguist to stand on points of agreement and differences with regard to the work of great grammarian (Sebaweh).

. ١ .

(التأثير والتأثر)

شكلت قضية الإتباع والإبداع (التقليد والابتكار) في مأسسة النص اللغوي عند سيبويه منطقة جذب للكثير من الباحثين ولعلها قد مثلت اختلاف التقييم تبعا لاختلاف الرؤية ،ففي حين يصّر كثير من الباحثين العرب على أصالة الدرس اللغوي العربي وخلوه من التأثر بالأنحاء السابقة له ،يذهب عدد من الباحثين الغربيين إلى شرعنه تأثر النحو العربي بما سبقه وبلوغ هدا التأثر حد التقليد عند بعضهم في أثناء تعرضهم لمدونة شيخ النحاة بالفحص والتقييم .

استوقفت بعض المستشرقين سرعة اكتمال العلوم اللغوية العربية قياسا إلى حضارات أخرى؛واستغربوا أن تكون أقدم وثيقة لغوية (كتاب سيبويه)على ذلك النحو من الاكتمال من حيث شمولها لظواهر العربية، وبلورة مفاهيم ومصطلحات نحوية تتسم بالدقة، والشمول والإحكام فقالوا((إن العرب لم يبنوا نحوهم الخاص بمثل تلك السرعة بجهودهم الخاصة بل اعتمدوا في ذلك علوم غيرهم من الأمم وتجاربهم))[1] وافترض بعض المستشرقين الألمان في مرحلة ما تأثر العرب بالتراث الهندي ونحو(بانيني) وقد يكون انبهار علماء النحو المقارن بالتراث الهندي وراء هذا التصور ؛واستوقف الفرض(بروكلمان) لكنه تخلى عنه و الباحثين عامة لقلة المؤيدات.وظهر فرض آخر لقي رواجا كبيرا من الباحثين لا يزال يجد من يتبناه ويبني عليه أبحاثه ؛ومؤدى هذا الفرض القول بتأثر النحاة العرب بالتراث الإغريقي.ولعل أول من أشار إلى هذه الوجهة من البحث إشارة عامة (ايناس جويدي)لكن (ادلبار ماركس) هو الذي دعم هذا القول واكسبه مصداقية الفرض العلمي المتين عند الباحثين ، فقد ذهب إلى اقتباس العرب بعض المفاهيم النحوية الإجرائية من منطق أرسطو واستدل على دلك من جملة ما استدل به :التقسيم الثلاثي للكلم:اسم وفعل وحرف.

بنـى(كيس فرسـتيغ c.h.versteeh)كتابـه (عناصـر يونانيـة فـي النحـو العربي)علـى فرضـية تكتسي . عنده . طابع الوثوق ، مؤداها تأثر المدونة اللغوية العربية بعناصر يونانية على امتداد المتن السيبويهي،ويبدو أن(فرستيغ) قد مّيز العمل الابتكاري الخالص من العمل الموسوم بالتقليد عبر إيراده . في كتاب آخر . مجموعة من الأفكار يمكن تلخيصها على النحو الآتي:

١إن سيبويه وضع في هذا الجزء من (الكتاب)تلك المبتكرات التي جاء بها هو إلى العلم.

٢. إن سيبويه لم يأخذ عن أي من النحويين في هذا الباب ، في حين نجده في الأبواب الأخرى من (الكتاب)يورد آراء النحويين في معظم صفحات مدونته.

٣. يُنظر. ربما . إلى هذا الجزء على كونه مدخلا إلى منظومة سيبويه الخاصة، لاحتوائه على تلك النقاط التي يتعمد فيها سيبويه الخروج على التقليد القائم ، ويرى أن أهم المبتكرات التي ادخلها هي تنظيم نظام الإعراب.[٣]

تبدو قراءة (فرستيغ) لمقدمة شيخ النحاة منتمية إلى أحياز الأنظار المعرفية الكاشفة عن الأسس الثاوية المبني عليها الكتاب ، ويمّثل التقاطه عدم إيراد سيبويه لأي رأي لمن سبقه من النحاة جزئية بالغة الأهمية ،فصاحب الكتاب دأب على امتداد مدونته الاستعانة بآراء من سبقه وأقوالهم لتعضيد رأي أو صياغة قاعدة ، ويظهر عدم إيراده لأي رأي في البدء . وعدم حساسيته في عرض الآراء في بقية المدونة . أنه تعامل مع النصوص (الآراء)الموجودة بين يديه بنوع من (المثاقفة)[٤] ، فهو متلق ايجابي يمارس قراءة معرفية بأقاليم فحص وآليات اشتغال تجعل الدليل قبلتها المتفردة ،فتلقيه لآراء من سبقوه تلقي دراية لا تلقي رواية على حد تعبير الأصوليين.

وجاء تقييمه لقضية(الإعراب)عند سيبويه في منتهى الدقة، فهو يرى . بحق . أن تعامله مع منظومة الإعراب يحمل الطابع التنظيمي لا الطابع الابتكاري ، فالذي يسبر مدونة شيخ النحاة يلمس الجهد العظيم المبذول في تصنيف المادة اللغوية المتناثرة ووضع القواعد لها، فقد أدرك أن قواعد اللغة لا يمكن ضبطها بمعيار صارم ينتظم جزئياتها المختلفة ، لذا ((لجأ إلى منهجية دقيقة تتمثل في رصد الاستعمالات اللغوية المتقاربة ، مازجا بين أصول العملية اللغوية نفسها،والتفسير النحوي الذي اعتمد فيه على ذوقه اللغوي ،وتفسير النحاة السابقين كالخليل وأبي

عمرو)) [٥] . ويفترض (فرستيغ)أن سيبويه اقترض في بقية المدونة من الكثير من المصادر المكتوبة ،وأن هذا النوع من الاقتراض تمَ بإشراف أحد أساتذته ،ويكشف أن بعض المصطلحات التي بدأ بها سيبويه بعض الاقتباسات من النحاة الأوائل ترجع في تلك الحالة إلى شكل النقل وليس إلى قيمة محتوى ذلك الكلام المقتبس [٦] .

ولي وقفة مع هده المقولة ،فينبغي علينا . هنا . أن نمّيز (ابيستمولوجيا) نوعين من الاقتراض :
أولا: الاقتراض بالنسق،ونقصد به الاقتراض من مصادر وكتابات ذات مساس مباشر بالمدونة اللغوية العربية ،الأمر الذي لا نستطيع أن نبتَ به،أما ما يقال بشأن كتابي (الجامع والإكمال) فهو ضرب من التخمين لا يختزن دلائل ترقى به إلى درجة اليقين.

ثانيا:الاقتراض بالذهنية المعرفية،ونعني به هيمنة الأداء المعرفي لمشهد معين يحمل طابع التأثير في معظم المناويل المتساوقة والمتداخلة في الوقت ذاته ،الأمر الذي تبدى بشكل جلي في أثر الفقه في نمط تفكير صاحب الكتاب ، واستعارته ألفاظا وعبارات فقهية في توصيف المادة النحوية العربية وطرائق تعبيرها.

من هنا، يبدو افتراض (فرستيغ)بشأن الاقتراض السيبويهي من مدونات مرقونة،افتراضا يفتقر سنده التاريخي الراكز،فلم يعثر مؤرخو الحقبة اللغوية العربية على مدونات مكتوبة تتسم بالوثوق قبل مدونة سيبويه ،فضلا عن أن معظم الآراء المحفوظة عن جهود ما قبل سيبويه إنما خرجت من أعطاف صاحب الكتاب نفسه ،فالكتاب يصور جانبين مهمين من جوانب الدرس النحوي :

أولهما: تصويره بوضوح لجهود النحاة السابقين ،فقد ذُكر أنه انتظم على نحو (٨٥٠)مقولة للنحاة المتقدمين على سيبويه.
ثانيهما: موضوع الدرس النحوي كما يراه سيبويه نفسه ، ولا ريب في أن ذلك . الى جانب ما بذل في تصنيفه وتخطيطه . يكشف عن عمل جاد ومجهود ذهني كبير،وليس أدل على ذلك من أنه وضع في بواكير مرحلة التفكير عند المسلمين [٧] .

ويظهر أن رأي (فرستيغ) قد رشح إلى بعض المعاصرين فنجده يرقن أن سيبويه وظف أبواب كتابه (وهي الأبواب السبعة الأولى)لتكون عاكسة للمنهجية التي سيكتب كتابه فيها ،سواء أكانت في تحليل المادة أم في ترتيب أبواب الكتاب (خطة الكتاب) [٨] . وهذا فهم ينطوي على مبالغة في تقييم العمل السيبويهي ،فهو يفترض انتظام العمل ماثلا بمياسمه المتفرعة في ذهن سيبويه قبل رقنه لمدونته ،بما ينّم عن مرحلة مبكرة في طرق التدوين وأساليب التأليف ،الأمر الذي يواجه صعوبة . منا . في تقبله والأخذ به. ويبدو رأي (فرستيغ) أقرب إلى الواقع المعرفي بكون شيخ النحاة حاول أن يخّتط طريقا خاصا به في انجاز عمله.

وينعتق (كارتر) من الأنظار الحافة بالتلقي الغربي بوسم منوال سيبويه بسمة التأثر بالنحو اليوناني ،فقد هاجم ما اسماه العناصر اليونانية في النحو العربي ، معتقدا أن كل شكل من أشكال الدراسات التي سبقت سيبويه كان من عمل أناس هواة .إن سيبويه . بحسب كارتر . أول نحوي حقيقي أخذ على عاتقه تجميع الحقائق اللغوية ،وهو كان محقا حينما افترض أن النظام القانوني قد أثر بشكل كبير في هذه الفترة[٩] ،وكما هو صحيح دائما ، هناك علاقة بين حقلي المعرفة هذين،لاسيما الحديث عن الأصول والعلة والقياس ومواضيع أخرى لها تماس مع أسلوب هذين الحقلين **.

ويمكن القول إن الانطلاق من مرجعية واحدة يفضي عقلا إلى نتائج واحده ، هذا المبدأ المعرفي لم يروه عن أرسطو وغيره من قال من نحاة العربية ((الكلمة جنس تحته هذه الأنواع الثلاثة لاغير ... ودليل الحصر أن المعاني ثلاثة : ذات ،وحدث ، ورابطة للحدث بالذات))[١٠]وبعبارة أخرى كل من اتخذ (الدلالة البحتة)منطلقا للتفكير في اللغة انتهى به التحليل الممنهج لظواهرها إلى فرز مقولات لغوية مطابقة لمقولات وجودية ، ولا يمكن في مثل هذه الحالة الحديث عن فضل السبق لأحد على الآخر ، ولا تخصيص لغة بما ليس في غيرها.

. ٢ .

(الغرض من الكتاب)

تعددت الرؤى والفهوم من الغرض الأصلي لرقن سيبويه مدونته اللغوية ، ويكتسي رأي (فرستيغ) طابع التردد في بلورة رأي موحد بشأن هذه القضية فيقول : ربما تأثر سيبويه . وهو فارسي . بالفروق الموجودة بين لغته الأم ولغة العرب التي تعلمها لغة ثانية ، وربما دفعة ذلك إلى الكتابة عن بنية اللغة بطريقة مبتكرة ، مسمّيا اللغة التي يصفها (لغة العرب)أو(العربية) ويقصد بالعرب الأعراب الذين يتكلمون اللغة الفصحى، ولم يتأثروا أو تفسد لغتهم بلغة الحواضر[١١] . وهذه المقولة تنطوي على مغالطة في فهم الدافع لعمل شيخ النحاة وإن لم يكن الوحيد الذي سجّل مثل هذا الفهم ، فيرى بعض المعاصرين ((أن سيبويه قصد بوضع الكتاب تيسير اللغة للأعاجم من خلال قواعد معينة))[١٢] فالصبغة التعليمية التي يدّعي فرستيغ اكتساء الكتاب بها صبغة غير مرئية بشكل جلي ،بل العكس ، فلغة المدونة لغة صعبة، عصية على الفهم لأول وهلة ، صحيح أن الأصل الأعجمي لسيبويه جعل لغته منمازة بهذه الخصيصة ،لكنه لم يكن مانعا عند فحص أعطاف المدونة من العثور على لغة كتبت بأسلوب يجنح إلى المحاورة العلمية لا الأسلوب التعليمي السلس ،على الرغم من سعي سيبويه ((إلى الوضوح في عباراته ولكن لا يوفق في بعض الأحيان ، فيأتي قوله غامضا وعباراته مستغلقة تحتاج إلى الشرح والتفصيل))[١٣] أما كتابة سيبويه عن بنية اللغة بطريقة مبتكرة وتسميته اللغة (لغة العرب) أو (العربية) فهو ابتكار التنظيم والتبويب، يتجذّر في أن المعيار المتبع هو معيار الفصاحة لدى الناطقين الأوائل و متبدّيا في عبارات لهج بها شيخ النحاة كثيرا من قبيل ((سمعت من أثق به من العرب يقول))[١٤] و ((زعم من نثق به))[١٥] و ((حدثني من سمعته))[١٦] و ((قال بعض العرب))[١٧] و ((انشد غيره من العرب))[١٨] فإيراد مثل هذه التعابير ينتمي إلى أحياز المعرفة المنعتقة من بوتقة اللحن وذيوع مساراته .

ويدون كارتر . بثقة . أن القصد من الكتاب تقديم تحليل مستفيض لكل تلك الألفاظ المعروفة بأنها ترد في اللغة . إن حقيقة كون معظم المادة التي درسها سيبويه في كتابة كانت إما من القران الكريم وإما من الشعر العربي في عصر ما قبل الإسلام يجب ألا تؤخذ على انه انحياز أو محاباة للقديم كما حاول احدهم أن يوحي (بلومفيلد) بل أنها مؤشر إلى الخلفية الثقافية لعملية تأليف الكتاب ، لأنه كُتب في زمن كان المجتمع يستمد جميع قيمه من المرحلة المبكرة للتأريخ . فهدف سيبويه تقديم وصف كامل للعربية ، إلا إن ما يؤسف له أن من تبعه من النحويين حولوا انجازه ذاك إلى اتجاه معياري صارم في النحو العربي ما زال السمة السائدة لمجمل الدرس اللغوي .[١٩]

يمكن تشقيق كلام كارتر في نقطتين :

١. إن الغرض من الكتاب تقديم تحليل مستفيض للألفاظ التي ترد في اللغة ، وهذا تعبير ملبس ، فما الذي يعنيه (كارتر) ب(الألفاظ) فإن كان المقصود إيراد المعنى المعجمي فهو كلام يجانب الصواب ، فكتاب سيبويه لم يكن مدونة معجمية ، فضلا عن أن صاحب الكتاب لم يعط مسارد توضيحية للألفاظ الصعبة الواردة في مدونته. وإن كان يقصد بالألفاظ البعد الاتصالي للفظ داخل تركيب محدد فهو رأي له ما يسوغه ، ولاسيما أذا لاحظنا ((أن سيبويه أدرك ما يكون من اندغام اللغة في نظامها الداخلي الخاص في مجالها الخارجي العام ، أو أدرك أن بين اللغة وسياقها الاجتماعي علاقة عضوية))[٢٠] أما دعوى انحياز سيبويه إلى القديم كما وسمه (بلومفيلد) ، فلم يكن سببها استمداد المجتمع قيمه من مرحلة مبكرة كما يرشح من عبارة كارتر ، بل لوجود ضابط منهجي اعتمد في الخطاب التأسيسي للنحو العربي، وهذا الضابط يكمن في الاستناد إلى بيئة وزمان محددين كما ركز في المدونات اللغوية العربية، فضلا عن إيراد سيبويه لكثير من مواقف المشافهة بينه وبين معاصريه ، فعنايته باللغة

المنطوقة امتدت لتشكل حيزا كبيرا من الكتاب من غير ان يستعمل سيبويه العبارة نفسها ، ولكن هناك الكثير من الألفاظ المعبرة عن هذا التوجه ، كقوله (تقول) (تخاطبني) و(تحدث) وسواها[٢١] . فلم يكن لتوصيف المادة بثنائية القديم /الحديث جانب انحيازي لدى شيخ النحاة، بل كان وكده وشيخه الخليل العمل ضمن الكلام العربي من طريق مبادئ يمتحنها سيبويه من طريق تطبيقها على المدونات العربية المتمثلة في الشعر العربي والقران الكريم والحديث النبوي وما قيس وحمل على كلام العرب.

٢. قول كارتر أن سيبويه هدف إلى تقديم وصف كامل للعربية ، ،وظاهر كلام كارتر يشير إلى الأساليب والتقعيد النحوي عند سيبويه ، وهو رأي هيمن على المنظومة المعرفية القابضة على بنية المتن السيبويهي عند المشتغلين على أرخنه المشهد النحوي العربي ، فمعظم المتن الذي تناوله سيبويه بالمعالجة عبر المستويات اللغوية كوّنه من أشعار العرب وكلامهم العادي ، وكان هدفه من تحليل هذه المادة اللغوية محصورا ((أولا في معرفة القواعد التي اعتاد المتكلم على استعمالها من اجل التواصل الشفوي أو الكتابي شعرا أو نثرا ، وثانيا في التعبير عن تلك القواعد بلغة واصفة من وضعه الخاص وفي إطار نظرية من صنعه أيضا))[٢٢] وهذه القواعد التي وصفها حاول نحاة من بعده أن يوظفوها إما لتعليم العربية للناطقين أصلا بغير هذه اللغة ،وإما لمن فسدت ملكته بسبب تداخل اللغات ،وإما لتحليل الخطاب.

.٣.

(المصطلح)

ترتهن قضية تبلور المصطلح ونضجه لاشتراطات معرفية تتعلق بعدم نضج المصطلح متوازيا مع نضج العلم ذاته ، فاكتمال العلوم يفضي إلى مصطلح راكز ، وهو أمر يبدو شائكا في المتن السيبويهي ، فبين القول بان المعنى وطرائق التعبير عنه تكتسي صبغة واضحة كما يدون باحث معاصر بان النظر ((في كتاب سيبويه يبين بما لا يدع مجالا للشك أن المصطلح النحوي عنده والصناعة النحوية لم تكن بمعزل قط عن المعاني ،بل أن المصطلح دال على المعنى بلفظه ، فالمصطلحات النحوية والأبواب دوال على معانيها قبل متابعة النظر في مضمونها))[٢٣] وبين من يرى أن ((الأمثلة الدالة على أن المصطلح النحوي لم يستقر لدى سيبويه والخليل كثيرة))[٢٤] لم تكن القضية بعيدة عن التلقي الغربي لمدونة شيخ النحاة ، فنلفي (تروبو) يتحدث عن ثراء المصطلح السيبويهي راقنا (فإذا اطلعنا على كتاب سيبويه لاحظنا أن لغته غنية جدا لأنه يستعمل عددا وافرا من المفردات ليعرض نظامه النحوي))[٢٥] وانتظاما مع رأيه بتأثر ذهنية صاحب الكتاب بالفقه (القانون) كما يسميه كارتر يذهب إلى أن مصطلحات مثل (شرط) و(عوض) و(بدل) و(حد) و(حجة) ويمكن أن نضيف إليها اصطلاحا مهما هو (الجزاء)ويعني في النحو العبارة الشرطية ،هذه المصطلحات لها صبغة قانونية[٢٦] ، ويؤشر كارتر بعدم وجود مصطلح محدد يقابل كلمة (grammar) مع إمكانية العثور على مجموعة من المصطلحات التي تشير إلى (طريقة) تكلم الناس مما يؤكد فرضية عد سيبويه الكلام شكلا من أشكال السلوك ومما يلفت الانتباه . عند كارتر- أن تكون جميع المصطلحات أخذت من مفهوم جذري واحد هو الحركة على طول الخط وهو استعمال مجازي يعرفه كل دارس للإسلام ، وهكذا نكتشف في الكتاب المفردات التي تخص(طرق) التكلم

والتي تستعمل مع المفردات العامة في الإسلام للتعبير عن طرق معينة في السلوك (طريقة)التي تدل كذلك على مسلك صوفي .

توقف (كارتر) مليا عند هذه المصطلحات ليربطها بعلم الكلام والأخلاق الإسلامية والسلوك ، فقد توفر لسيبويه . بحسب كارتر . نوعان من العبارات : استعمل سلسلة من العبارات المتوفرة لديه لتوصيف الظواهر الموجودة في العربية . الأمر الذي يعني استناد سيبويه إلى الحاضنة المعرفية التي نشأ فيها النحو .

ثانيا : استعماله لعبارات مسترفدة من النظام التشريعي ، ولم يتأتى هذا الاسترفاد من فراغ ، بل استنادا إلى الأجواء التي نشأ فيها شيخ النحاة. ويمكن تلخيص أنظار كارتر لمصطلحات سيبويه على النحو التالي:

١. استعمال المعيار الأخلاقي في النحو مثل (حسن وقبيح).

٢ان اصطلاح(موضع) مشتق من دراسة القانون.

٣. إن كثيرا من العبارات اللغوية لها دلالات قانونية مثل (شرط وعوض)[٢٧].

إن ملاحظة (كارتر) فيما يخص العلاقة بين النحو و القانون (الفقه) في العلم الإسلامي صحيحة إلى حد كبير،ويمكن القول إن كارتر فكك الخطاب السيبويهي بدرجة عالية من الفحص عبر آليات اشتغال واضحة ومحددة ، هذا معطى أول، أما المعطى الآخر عند كارتر فيكمن في دفاعه عن الجذر المعرفي العربي والإسلامي للنحو العربي في وجه من زعموا نسبته للمنطق الأرسطي ، فهو يرى أن مصطلحات النحو ومفاهيمه إن لزم لها ((جذورا وأصولا ينبغي البحث عنها في حقول المعرفة العربية والإسلامية وليس خارجها ، نظرا لتفاعلها الطبيعي المدهش داخل البنية المركبة للعقل العربي والمسلم))[٢٨] .

ولا يبتعد (كرستيغ) عن اسار الحاضنة المعرفية التي انطلق منها بوجود تأثير يوناني في النحو العربي رادا العبارات التي تتعلق بالأخلاق وبدراسة القانون إلى تأثير الكتب التي تتناوش الكلام

الصحيح وغير الصحيح في الفترتين الهيلينية والبيزنطينية ، ورغم الطابع الوثوقي الذي يصطبغ به قول كريستغ إلا أن له رأيا مخالفا بشان العدة الاصطلاحية لشيخ النحاة فنجده يرقن في موضع آخر ((إن سيبويه استعمل مصطلح الحركة قبل أن يعرف كتاب أرسطو في العالم العربي عن طريق ترجمة إسحاق بن حنين))[٢٩] ويبدو أن المسارد التاريخية لا تعين كرستيغ في رأيه الأول ، فقد ثبت أن عبدا لله بن المقفع لم يترجم كتب أرسطو إذ ترجمت بعد تأليف كتاب سيبويه بعقود الأمر الذي يدل . بحسب المخزومي . على أن ((مذهب الخليل في النحو قد رسمت حدوده وبانت معالمه قبل ظهور هذه الترجمة))[٣٠] ويؤكد هذا المعنى ما قاله ليتمان ((لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه))[٣١].

ويستعمل المعنى في المتن السيبويهي بطريقتين مختلفتين ، في مواقع كثيرة يشير مصطلح(المعنى) إلى قصد المتكلم ، الذي يختلف عن المستوى الأساس المعاد تركيبه من قبل النحويين لأسباب (نحوية)إعرابية بما لذلك من علاقة اكبر مع الناحية التواصلية في اللغة.وفي مقام آخر يستعمل المعنى للتعبير عن وظائف عناصر اللغة ، فوظيفة الحرف (أ) هي من قبيل الاستفهام كما في عبارة (أكتب ؟) وهذا المعنى الوظيفي يعده سيبويه من المسلمات إلى حد ما ، فهولا يعطي تحليلا مفصلا للمحتويات الدلالية لهذا المعنى ولكنه يكتفي بالقول إن هذه وظائف عناصر اللغة[٣٢].

ويبدو تروبو من المناصرين لتفرد النحو العربي بعدته الاصطلاحية الخاصة البعيدة عن اقتباس المصطلح النحوي من اليونان وذلك من جميع النواحي : الناحية اللسانية والناحية اللغوية والناحية التاريخية والناحية المنهجية ، مجيبا عن التساؤل المثير للجدل : كيف نشأت هذه المصطلحات التي نرى سيبويه يستعملها؟بأن صاحب الكتاب استعمل المصطلحات المشتركة

بين العلوم الإسلامية الأصلية التي هي : القراءات ، والحديث ، والفقه ، وهذه المصطلحات تكونت في وقت واحد هو النصف الثاني من القرن الثاني الهجري[٣٣] .

.٤

(العامل)

فيما يخص الوظيفة الكامنة في بنية الخطاب السيبويهي يرى (كارتر) أن فحص حمولات الكتاب تظهر تداخل العامل بين المتكلم وأحد عناصر التركيب ((فعندما نتفحص قائمة الوظائف يتضح لدينا أن ليس هنالك تمييز واضح بين تلك الوظائف التي يكون فيها المتكلم نفسه هو العامل وتلك التي يكون فيها احد عناصر التركيب اللغوي هو الذي يعمل في العنصر الآخر . يمكن الافتراض في نهاية الأمر أن المتكلم يكون دائما هو المحرك الرئيس في كل عملية نحوية ، وان سيبويه كان مدركا لذلك تماما))[٣٤] يبدو هذا الكلام دقيقا استناد إلى وكد سيبويه وضع منهجية صارمة للغة المنطوقة عبر تدوينها بقواعد واليات اشتغال مقننه ، وكلام كارتر لا يبتعد عن مفهوم العوامل اللفظية والمعنوية ، والإسهام الأساس لديه اتكاله على المتكلم في ضبط الأثر المستكشف على وفق تصورات محدده، وتفيض مدونة سيبويه بأمثلة غير قليلة نرقن منها في استناده إلى غرض التكلم في توجيه الرفع والنصب في قولهم (خيرُمقدمِ)أو(خيرَ مقدم)فإذا رفعت هذه الأشياء فالذي في نفسك ما أظهرت ، وإذا نصبت فالذي في نفسك غير ما أظهرت[٣٥] ، وهو الفعل والذي أضمرت الاسم ، لأنك إذا رفعت فالذي أضمرت مبتدأ والمذكور هو الخبر ، والمبتدأ هو الخبر في المعنى ، أما إذا نصبت فالذي أضمرت الفعل وهو غير الاسم المفعول ،وهكذا جعل سيبويه الإعراب تابعا للمعنى القائم في نفس المتحدث وقدر في كثير من المسائل مسايرة الأعراب للمعنى ، ورد الأمر في اختلاف الإعراب إلى اختلاف المعنى المراد وفي ذلك محاولة منه لربط اللغة بالنفس. ومما سبق وغيره يتضح اعتماد سيبويه الكبير على نية المتكلم وما أراده من معنى في توجيه التركيب إعرابيا وبيان دلالته المراده وتذهب موزل إلى أن الدرس

النحوي في كتاب سيبويه مرتكز على عنصر المتكلم بعده متكلما مثاليا أو يروم أن يحذو حذو المتكلم المثالي ، واستخلصت الباحثة من هذا التوجه أن الدرس النحوي الذي وضعه سيبويه غاية تعليمية قبل كل شي[٣٦] .

ويبدو أن هذه الآراء قد طغت على البحث اللساني المعاصر فنجد بعض الباحثين يرقن ((تميز النحو السيبويهي بتمكنه على النحو العاملي ، فقد بلغت البنية العاملية حدا جعل البنيات الأخرى المقولية والصرفية والمعجمية لا تمثل إلا معالم في المرور من الأشكال المجردة إلى أصناف القول))[٣٧]فقد كان سيبويه مدركا لوجود مستويين متميزين في اللغة ،مستوى النظام النحوي القائم على تجريد الوظائف اللغوية وتحديد العلاقات بينها من غير تدخل المتكلم ، ومستوى الحدث اللغوي الذي قد يخرج على قواعد النظام النحوي ويتجاوزها، وكان مدركا أن المعنى الأول قد يختلف عنه في المستوى الثاني ، لذلك نراه في مواضع مختلفة من كتابه يفسر تركيبا مستعملا في العربية بتركيب آخر ثم يتبعه بعبارة تكشف عن تفطنه للفرق بين النظام النحوي والحدث اللغوي إذ يقول((وهذا تمثيل ولا يتكلم به)) فكل من عرف كتاب سيبويه معرفة المدارسة لا معرفة السماع يدرك كيف كان له تبصر دقيق بخاصية اللغة العربية انطلاقا من قضية الإعراب على وجه التعيين ، فمنذ مطلع الكتاب لا يفتأ يقارن بين عناصر اللغة على أساس ما يسميه بالتمكن ، وهو المصطلح الذي يغطي كل الفضاء الدلالي المستوعب لظاهرة الإعراب . إن سيبويه يتحدث عن الإعراب بصريح المصطلح عندما يتعرض للعلامة الدالة على وضع اللفظة داخل التركيب بعد أن يحتكم إلى طبيعتها بضمن أقسام الكلام ، ولكنه ينزل الإعراب داخل ظاهرة(التمكن) فتصبح الفاظ اللغة متفاوتة الدرجات بحكم هذا المعيار الخاص.

ولو أن قارئا تفرغ بعض التفرغ لاستنطاق المتن السيبويهي من هذه الزاوية لثبت لديه بما لا يقبل الشك أنه كان يدرس اللغة العربية وهو واع بأنها في حالة صيرورة تاريخية ، وبان ظاهرة الإعراب هي خاصة لعلاقة اللغة بالمعنى ، لأنها ملازمة للوظيفة الدلالية التي من اجلها يتوسل الإنسان بالكلام((لان سيبويه كان صدى أمينا للمخاض المعرفي حول اللغة كما جسمه أستاذه الخليل بن احمد الفراهيدي (١٧٥ هـ) ما كان يغفل عن حقيقة الإعراب لو كان الإعراب غير محايث للغة العربية)) [٣٨]

.٥

(أقسام الكلام)

يحمل تقسيم الكلام لدى سيبويه طابعا إشكاليا،وهذه الإشكالية متأتية من الالتباس الموجودة بعبارة صاحب الكتاب من الجهة ،وتعدد التلقي والفهوم من جهة أخرى، ولم يكن التلقي الغربي بمعزل عن هذا الفهم الملتبس للنص ذي الدلالات والرؤى المختلفة بل المتباينة أحيانا،فالصبغة الوظيفية التي وسم بها (كارتر)الكتاب جعلته يرى أن سيبويه في تحليله الكلام قد عمل بشكل واع ومنهجي على إحالة اللغة إلى مجموعة من الوظائف مستعملا طريقة لها أوجه شبه جوهرية بالتحليل الحديث للكلام إلى مكونات مباشرة **.فسيبويه بتصنيفه نحويا وظيفيا من قبل (كارتر)سرعان ما يستعرض الأصناف الشكلية للعربية في الباب الأول من الكتاب،ففيها صنفان فقط لهما معالم واضحة دلالة وصرفا وهما الأسماء والأفعال،لذا، فهو يعرف ما تبقى من الأشكال اللغوية باتجاه سالب لا يعدها من جهة الصرف أسماء ولا أفعالا، أما من جهة الدلالة فليس لأحدها معنى معين،ويسمي هذا الصنف من الكلام (الحروف)، وأي تعريف يخصص لأحد أعضاء هذا الصنف إنما يأتي نتيجة العلاقة بينه وبين وظيفة نحوية معينة[٣٩] وذهبت

الباحثة الألمانية (موزل)إلى ((أن سيبويه قسم الكلام على أساس توزيعه في الجملة))[٤٠] ويبدو كلام كارتر مفتقرا إلى الدقة، فالإمساك بمنهجية سيبويه في التبويب والتصنيف أمر بالغ الصعوبة ،فهو يولي وجهه شطر التحليل الشكلي تارة،والى تتبع كلام العرب تارة أخرى،ومدونته تختلف اشد الاختلاف عن مصنفات المتأخرين من جهة التوصيف وضبط القضايا وعرضها،فجوهر النظر عند سيبويه قائم على((ضبط النظام الذهني ،ورد نماذج الاستعمال إلى ذلك النظام)) [٤١] أما دعوى استناد صاحب الكتاب إلى التحليل الشكلي فأمر يصعب تقبله ،صحيح انه استعمل هذا المنهج لكن ليس على طول الخط ،فسيبويه كان يعمل على حصر التقسيم بشكل منهجي آخذا بنظر الاهتمام المعاني التي يمكن أن ترد في الملفوظ .بيد ان هذا لم يكن الأساس الوحيد الذي اعتمده سيبويه في مفهومه للاسم ،بل اعتمد في ذلك أسسا خمسة لتحديد ماهيته:

- الأساس التوزيعي
- الأساس الاستبدالي
- الأساس الوظيفي(النحوي)
- الأساس الصرفي
- الأساس الدلالي [٤٢]

ونعني بالأساس التوزيعي السوابق واللواحق الخاصة بالأسماء ، كأن يسبق الكلمة دون فاصل حرف الجر ،أو يلحقها نون التنوين أو ياء النسب. ونعني بالأساس الاستبدالي أن تقع الكلمة أو الضميمة موقع اسم جنس في سياق صحيح . ويعني الأساس الوظيفي أن تقع الكلمة فاعلا أو مفعولا ، أو في موضع تختص به الأسماء فتؤدي وظيفة نحوية . ويعني الأساس الصرفي أن تثنى الكلمة أو تجمع جمعا صحيحا أو تكسيرا أو تصغر أو تؤنث . ويعني الأساس الدلالي أن تدل الكلمة على معنى في نفسها من غير اقتران بزمان

محصل ويرى (فريستغ) أن النحو عند سيبويه جاء لخلق نوع من النظام للمادة الضخمة للغة العربية ،وحاول خلق هذا من طريق بعض الأفكار الرئيسة التي لم تكن محددة أو كانت محددة بطريقة وصفية ، فالعديد من العبارات كانت تستعمل بطريقة غير اصطلاحية قبل سيبويه منها على سبيل المثال الاسم ، أما الفعل فكان يوصف بهذه الطريقة((وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع وما هو كائن لم ينقطع))[٤٣]، ويجب إلا يؤخذ هذا تعريفا كما فعل الزجاجي(٣٣٧هـ)، بل للتذكرة بحقيقة أن الأفعال مشتقة من المصادر وأنها تأخذ أشكالا مختلفة لتصنيف الصيغة الفعلية ، وبعبارة أخرى ،انه ليس تعريفا لجوهر الفعل كما نجده عند النحاة المتأخرين ولكنه وصف لشيء في الكلام.[٤٤]

ويبدو أن كلام فرستيغ يحمل نوعا من الاطلاقية ، صحيح أن كتاب سيبويه جاء لإدخال النحو في حيز المنظومة المعرفية الخاضعة لضوابط العمل المنهجي المنظم ،إلا أن الغرض الرئيس من الكتاب هو الجانب العلمي منه مع انه يحمل من الجوانب التعليمية الشيء الكثير ، مع الانتباه إلى رأي (فرستيغ) في موضع آخر حينما ذهب إلى تأكيد رأيه بالاتجاه الوصفي الضاغط على صاحب الكتاب إذ يقول ((وطالما أن الناطقين بالعربية . من تسميتهم .

لا يخطئون إطلاقا ، لم يكن الغرض من علم اللغة معياريا))[٤٥] أما دعواه بعدم خضوع عبارات سيبويه للضبط الاصطلاحي الصارم فيعود إلى المحاولة البكر لتدوين الشفاهية اللغوية من أفواه الباحثين إلى القيد الكتابي لذا، فمن الطبيعي ألا توجد المصطلحات التي نلفيها في المنجز التدويني عند العرب بعد سيبويه .

وخلط (فريستغ) بين التحديد بالاسم والتحديد بالتوصيف حين ذهب إلى خطل رأي الزجاجي في فهمه لكلام شيخ النحاة على انه تعريف ، فكلام الزجاجي دقيق ، لان سيبويه لم يكن معنيا بوضع حدود جامعة مانعة لما يتحدث عنه بل كان همه منصبا على توضيح ما يود أن يقوله

بشأن المتحدث عنه ، فوظيفته ماثلت وظيفة المفسر فقد سعى لتفسير كلام العرب كما يسعى المفسر لبيان دلالة كلام الله وتحصيل مقاصده ، فكذلك عقد سيبويه مدونته ((على النظر إلى الكلام وتركيباته وكيفية فهمه فبين أنماطه ووظائف أجزائه واقل ما يمكن أن يتكلم به))[٤٦]

ويستصفي كارتر مذهب سيبويه في تعريف الكلام أو الجملة المفيدة عنده انه ما ((يحسن السكوت عليها)) فكل كلام تام . إذن . ينتهي بالسكوت، ولكن سيبويه ميز ضربا من السكتة يتقدم الكلام ، ويتعين به مبتدأ، فهو يرىأن أول الكلام أبدا هو النداء إلا أن تدعه استغناء بإقبال المخاطب عليك ، فهو أول كل كلام به تعطف المُكلّم عليك ، فلما كثر وكان الأول في كل موضع حذفوا منه تخفيفا .وإذا استبان حد البدء فان علامات الوقف في الفصحى وهي علامات انتهاء الكلام معروفه ، إذ عولجت قي باب (الوقف)علاجا مستفيضا .

ويرجع كارتر النظر في هذين الحدين في حد الكلام عند سيبويه فيجدهما مماثلين جدا لتعريف (هاريس) للكلام بأنه ((كل امتداد للنطق من جهة شخص واحد ، يسبقه ويعقبه صمت من جهة الشخص نفسه))[٤٧] ويرى كارتر في منتهى النظر ، أن كتاب سيبويه يقدم نموذجا في التحليل البنيوي لم يعرفه الغرب حتى القرن العشرين.

وتعددت تقييمات (كريستغ) لعمل سيبويه المنهجي فهو يرقن((من الممكن تسمية الكتاب لسيبويه ديوان تحف ونوادر للغة العربية ولكنه يتسم بمستوى عال من الانجاز قلما استطاع النحاة المتأخرون الوصول إليه))[٤٨]

ويقول في موضع آخر إن الفرق بين النحاة . خبراء في اللغويات التقليدية. وسيبويه ، هو أن سيبويه نظم الحقائق اللغوية في كل متسق[٤٩]، رادا صعوبة الكتاب إلى الإطار النظري الذي يكتنفه ، يقول باحث معاصر((ويؤيد هذا الاتجاه العلمي بعض المستعربين أمثال فرستيغ الذي يذهب إلى ان كتاب سيبويه مؤسس على إطار نظري منسجم ومتماسك لذلك فانه سيكون صعبا

وغامضا على الباحث الذي لا يملك تجربه علمية))[٥٠]، ويقول في موضع آخر أن معايير شيخ النحاة في تفسير بنية اللغة كانت منهجية بشكل غالب ، إذ يذكر سيبويه الفروق الدلالية بين التراكيب اللغوية وكونها حافزا للفروق النحوية ويعتمد على حكم الناطقين الأصليين باللغة في التمييز بين الجمل ، لكن الفروق الدلالية في حد ذاتها لم تكن موضوع بحثه. وبقي هذا المنهج المتبع في معظم التقليد اللغوي الذي أعقب سيبويه [٥١] . وهذا رأي له ما يبرره ، فالمقولة التي قامت عليها جميع كتب النحو عبر محاورة ومسائلة المتن السيبويهي تتمثل في مفهوم الاستقامه ، وقد تحدد المفهوم بل ارتبط كثيرا بالتوصيف المعياري (القواعدي) الامر الذي جعل فكر اللغويين يتجه إلى تكريس جهودهم للبنية اللغوية المبثوثة في مدونة شيخ النحاة .

الهوامش:

١. المنوال النحوي .١٧٧

٢. ينظر : م.ن .١٧٨

٣. ينظر: أعلام الفكر اللغوي .٧٦،٧٥

٤. المثاقفة : المقصود بها التفاعل مع معرفة الآخر وعدم التسليم بها من غير تدبر وتمعن .

٥. الصراع بين التراكيب النحوية .١٧٧

٦. ينظر : عناصر يونانية في الفكر اللغوي العربي ٦٣،٦١.

٧مناهج الدرس النحوي .٩١

٨. ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه ٦٧ .

٩. عناصر يونانية ٥٧.

**نذّكر هنا أن سيبويه وفد إلى البصرة قاصدا دراسة الحديث والفقه والآثار ، بقول الخطيب البغدادي عن سيبويه ((كان يطلب الآثار ثم صحب الخليل ... فبرع في النحو...كان في أول أيامه يعجبه الفقهاء وأهل الحديث)) تاريخ بغداد ١٢/ ١٩٥.

١٠. شرح شذور الذهب ٢١.

١١. ينظر : أعلام ٧٢.

١٢. مناهج الدرس النحوي ٩١.

١٣. الرماني النحوي.١٢٣

١٤. الكتاب ١/ ٢٣٠.

١٥. م.ن ٢/ ١١٣.

١٦. م .ن ١/ ٢٥٠.

١٧. م.ن ١/ ٥١.

١٨. م.ن ٢/ ٢٠.

١٩. ينظر: نحوي عربي من القرن الثامن للميلاد ٣٠.

٢٠. نظرية النحو العربي ٩٩. وينظر رؤى لسانية ١٤١.

٢١. ينظر التراكيب غير الصحيحة نحويا ٢١٣.

٢٢. نظرية اللسانيات النسبية ٢٩.

٢٣. البعد التداولي في كتاب سيبويه (بحث) ٢٧٤.

٢٤. المصطلح النحوي ٣٥

٢٥. نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه (بحث) ١٣٧.

٢٦. ينظر : نحوي عربي ٣.

٢٧. ينظر : عناصر يونانية ٥٨،٥٧

٢٨. البعد التداولي .٢٤٩

٢٩. المستشرقون .٥٠

٣٠. عبقري من البصرة .٨٨

٣١. المستشرقون .٥٠

٣٢ . ينظر عناصر يونانية ٧٠.

٣٣. ينظر : نشأة النحو العربي .١٣٨

٣٤. نحوي عربي .٣٥

٣٥. الكتاب ١/ .٢٧١

٣٦. الإنشاء في العربية .٤٢،٤١

٣٧. قضايا ابيمستولوجية في اللسانيات٢٢٠.

٣٨. العربية والإعراب ٧١.

** يعد هذا المنهج أهم إسهام للبنائية الأميركية في علم التركيب ، وضع أسسه(بلومفيلد) حين حلل جملته المشهورة (boor john ran away) إلى مكوناتها المباشرة ، وتمت له الصياغة المنهجية بجهود التابعين لبلومفيلد ، فاستوى على أيديهم منهجا لوصف تركيب الجملة وصفا شكليا لا يتصل بالمعنى في الأغلب الأعرف ، لقد عنى هذا المنهج بالجملة ليس بصفتها خطا أفقيا من الكلمات ، بل بصفتها بناء متدرجا يتكون من طبقات كل طبقة منها تحت طبقة أكبر منها في تقسيمات ثنائية حتى نصل إلى الطبقة الصغرى التي لا يمكن تقسيمها وهي المورفيمات

.

٣٩. نحوي عربي ٣٤.

٤٠. المركب الاسمي في كتاب سيبويه ٣٦.

٤١. اللغة والكلام في التراث النحوي العربي (بحث) ٨٦.

٤٢. ينظر المركب الاسمي ٣٦.

٤٣. الكتاب ١/ ٣٢٢.

٤٤. ينظر عناصر يونانية ٥٢.

٤٥. أعلام الفكر اللغوي ٧٢.

٤٦. مفهوم الجملة ٣٦.

٤٧. نظرية النحو العربي ٤٤.

٤٨. عناصر يونانية ٧٣.

٤٩. ينظر : عناصر يونانية ٦٢.

٥٠. جملة الشرط ٣.

٥١. ينظر أعلام الفكر اللغوي ٣٧.

المصادر والمراجع

- الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة . دراسة نحوية تداولية ، د خالد ميلاد جامعة منوبة ، المؤسسة العربية للتوزيع ، تونس ط١، ٢٠٠١م
- أعلام الفكر اللغوي ، التقليد اللغوي العربي، كيس فيرستيغ، ترجمة د أحمد شاكر الكلابي ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ،٢٠٠٥م
- البعد التداولي في كتاب سيبويه (بحث) مقبول إدريس ،مجلة عالم الفكر، وزارة الثقافة والفنون ولآداب ، الكويت ،م٣٣،عدد١، يوليو . ديسمبر ٢٠٠٤م.
- التراكيب غير الصحيحة نحويا في(الكتاب) لسيبويه دراسة لغوية ، د محمود سليمان ياقوت ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ،١٩٨٨م
- جملة الشرط عند النحاة والأصوليين العرب ، د مازن الوعر، لونجمان ،بيروت، ١٩٩٩م
- الرماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه ، د مازن المبارك ، دار الفكر المعاصر، سوريا، ط٣، ١٩٩٥م
- رؤى لسانية في نظرية النحو العربي ، د حسين خميس الملخ ، دار الشروق، عمان ،٢٠٠٦م
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، ابن هشام الأنصاري،مكتبة الكليات ، القاهرة ،د.ت
- الصراع بين التراكيب النحوية . دراسة في كتاب سيبويه ، د عبدا لله محمد الكناعنة ، دار الكتاب الثقافي ، الأردن، ٢٠٠٠م
- عناصر يونانية في الفكر اللغوي العربي ، د كيس فرستيغ ، ترجمة د محمود كناكري ، وزارة الثقافة ، الأردن، ٢٠٠٠م
- عبقري من البصرة ، د مهدي المخزومي ، البصرة ١٩٧٢م
- العربية والإعراب ، د عبد السلام المسدي ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط١، ٢٠١٠م
- قضايا ابستمولوجية في اللسانيات ،حافظ اسماعيلي علوي ،امحمد الملاخ، منشورات الاختلاف ،بيروت ط٢٠٠٩،١م
- الكتاب (كتاب سيبويه)عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ) تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ط١٩٨٨،٣م
- اللغة والكلام في التراث النحوي العربي ، د محمد سعد الغامدي، مجلة عالم الفكر ، مج ٣٤، ع٣، يناير مارس ٢٠٠٦م

- المركب الاسمي في كتاب سيبويه ، علي المعيوف ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ،المملكة العربية السعودية ، ٢٠٠٧م
- المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية ، دار حنين ، ١٩٩٢م
- المصطلح النحوي . نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري ، عوض حمد القوزي ، الرياض ، السعودية ١٩٨١م
- مفهوم الجملة عند سيبويه ، د حسن عبد الغني الاسدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٢٠٠٨م
- مناهج الدرس النحوي في العالم العربي في القرن العشرين ، د عطا محمد موسى . دار الإسراء ،عمان ،ط١، ٢٠٠٢م
- المنوال النحوي العربي . قراءة لسانية جديدة ، عز الدين مجذوب ، دار محمد علي الحامي ، تونس ، ١٩٩٨م
- نحوي عربي من القرن الثامن للميلاد (بحث) . دراسة عن منهج سيبويه النحوي ، مايكل جي كارتر ، ترجمة د عبد المنعم آل ناصر ، المورد ، مج ٢٠، العدد الاول ١٩٩٢م
- نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه (بحث) جيرار تروبو ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد الأول ١٩٧٨م
- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١، ١٩٨٠م
- نظرية اللسانيات النسبية . دواعي النشأة ، محمد الاوراغي ، منشورات الاختلاف ، بيروت ،٢٠١٠م